رجال الدين المسيحيون ومواقفهم من الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962

CHRISTIAN CLERGY AND THEIR POSITIONS ON THE ALGERIAN LIBERATION REVOLUTION 1954-1962.

Rs. Mohamed MHAMDI
University of M'SILA
Mohamed.mhamdi@univ-msila.dz

الباحث: محمد محمدي
جامعة المسيلة

استلم:	**2019/09/03**	***Received:***	
قُبل للنشر:	**2020/01/21**	***Accepted:***	

ملخص:

تحاول هذه الدراسة التاريخية المتواضعة تسليط الضوء البحثي والتاريخي من أجل إماطة اللثام وكشف الستار عن واحدة من القضايا والإشكالات التاريخية إبان مرحلة الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962، إذ تعد هذه المسألة من بين المسائل المسكوت عنها تاريخياً، وذلك ما حاولنا من خلال هذه الدراسة كسر حاجز الطابوهات التاريخية والخروج عن المألوف، من خلال محاولة رصد مواقف رجال الدين المسيحيين الفرنسيين بصفة خاصة والأوربيين عامة إزاء القضية الجزائرية والثورة التحريرية عموماً، حيث وقفت الدراسة على تباين واضح في مواقف هذه الأوساط المسيحية من القضية الجزائرية وثورتها التحريرية بين مناهض لهذه الثورة ومساند لها، الأمر الذي أحدث العديد من التناقضات بين هؤلاء المسيحيين وساهم في تشتت المواقف نحو هذه المسألة الحساسة بالنسبة للفرنسيين، وعليه فقد كانت هذه الدراسة المتواضعة محاولة لتجلية حقيقة مواقف رجال الدين المسيحيين من الثورة التحريرية والقضية الجزائرية .

الكلمات المفتاحية: رجال الدين؛ المسيحيين؛ الثورة الجزائرية؛ المواقف؛ القضية الجزائرية؛ المساندة؛ المناهضة.

Abstract

We will try through this humble historical study;Shining the research spotlight on one of the sensitive issues during the Algerian liberation revolution 1954-1962, And it comes to the positions of French and European Christian clergy in general,From the Algerian issue in general and the editorial revolution in particular ; Where we stood through this simple study on the contrast of these circles of Christianity ; Between its footstools and antisepsis. This study was an attempt to reveal some of the positions of these Christians regarding the Algerian liberation revolution

Keywords : : *Clergy; Christians; the Algerian revolution; attitudes; the Algerian cause; support; opponents.*

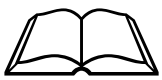

مقدمة:

شهدت الجزائر مع مطلع القرن التاسع عشر احتلالاً استيطانيا مباشراً، أين طبقت فرنسا الاستعمارية في الجزائر العديد من الأساليب اللاإنسانية تجاه السكان الجزائريين طيلة مرحلة السيطرة العسكرية على البلاد والتي دامت لما يزيد عن 132 عاماً.

واستناداً لهذه الحادثة فقد أظهرت المجموعة الدولية، جملة من المواقف المتباينة إزاء حدث الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد حادثة المروحة الشهيرة، ومن بين المواقف التي تباينت واختلفت إزاء واقعة الاحتلال الفرنسي للجزائر، نجد أن فئة المسيحيين الأوربيين قد كانوا من المجموعات التي لم تستطع أن تجمع على موقف ثابت إزاء هذا الحدث التاريخي، وعليه سنحاول في هذه الدراسة التعرف على مواقف هؤلاء المسيحيين من القضية الجزائرية عامة والثورة التحريرية خاصة، وفقا للعناصر الآتي ذكرها:

1-الدوافع المسيحية الصليبية وحضورها في الحملة الفرنسية العسكرية على الجزائر.

2- رجال الدين المسيحيون المناهضون للثورة التحريرية الجزائرية1954-1962.

3- رجال الدين المسيحيون المتعاطفون مع القضية الجزائرية.

1-تجليات الدوافع الصليبية المسيحية في الحملة الفرنسية على الجزائر:

يعد الاحتلال الفرنسي للجزائر في ال05 جويلية 1830، من بين الأحداث الكبرى والهامة التي عرفها العالم في الفترة الحديثة والمعاصرة، وذلك لما حمله هذا الاعتداء من تداعيات وانعكاسات سلبية على بلد الجزائر وسكانها الأصليين، فمنهم من اعتبر الحدث انتقاماً من ممارسات اللصوصية وقطع الطرق أمام تجار البحر، و التي انتهجتها الجزائر في حوض البحر الأبيض المتوسط، في حين اعتبرها البعض امتداداً تاريخيا للروح الانتقامية المسيحية التي ظهرت معالمها بعد الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين.

ومن هذا المنطلق، واستنادا إلى البحث والتنقيب في مسيرة المعتقد الديني الفرنسي، فقد اتضح أنه في ظل الإجماع الحاصل حول اعتبار العقيدة المسيحية المعتقد الرئيس بالنسبة لعموم الفرنسيين فقد جاء دستور الثورة الفرنسية 1789، ليؤكد ضمن نصوصه وقوانينه أن الدولة الفرنسية وفي ظل

الجمهورية الجديدة ستكون دولة لائكية المعتقد والدين[1]، أي أن الدولة الفرنسية في ظل هذا التوجه ستضمن لجميع منتسبيها حريتهم التامة في اختيار العقيدة الدينية التي يرضونها لأنفسهم، وعليه فإن السلطة السياسية السائدة في البلاد ستكون بمعزل عن كل تدخل خارجي في المسائل الدينية أو الاعتقادية، فهي من هذا المنطلق دولة علمانية تقوم على أساس قوامه: «**فصل الدين عن الدولة**».[2]

ومما سبق ذكره؛ نجد أن السلطات السياسية والعسكرية الفرنسية بمستعمرة الجزائر، قد حادت عن القوانين التي رسمتها لنفسها في أولى تجاربها الديمقراطية، وبخاصة خارج المجالات الجغرافية للحدود القومية الفرنسية أين تتجلى لنا الصورة واضحة في أنموذج الحملة العسكرية الفرنسية المعلنة ضد الجزائر سنة 1830 والتي من خلالها يتضح لنا الحضور الفعلي للعقيدة المسيحية[3] ضمن الأهداف الماورائية لهذه الحملة ضد العقيدة الاسلامية والهوية الامازيغية العربية الاسلامية للشخصية الجزائرية، وهي الأهداف التي ارتسمت حقائقها في الأبعاد والأهداف المعلنة في إطار الدوافع المعلنة للإعلان عن الحملة العسكرية ضد الجزائر، والتي كان على رأسها حماية المصالح الفرنسية والأوربية الصليبية في الحوض الكبير للبحر الأبيض المتوسط، وهو الطرح الذي أكدته أغلب التقارير الفرنسية المتبادلة مع باقي الدول أو حتى من خلال التصريحات التي أدلى بها بعض القادة السياسيين أو العسكريين حول الأهداف الحقيقية لهذا المشروع الاستعماري، ومن أمثلة ذلك التقارير المتبادلة بين الدوق «**دي كليهون**» مع الملك الفرنسي «**شارل العاشر**» حول أبعاد الروح الصليبية في الحملة الفرنسية المعلنة ضد الجزائر

(1) عثمان زقب: السياسة الفرنسية في الجزائر 18301914(دراسة في الأساليب الإدارية)، أطروحة دكتوراه، إ: صالح لميش، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2015/2014ص 319.

(2) مصطفى حسيبة: المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر، الاردن، د.ت.، ص 345.

(3) سهيل زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج07، المصادر العربية للنشر، سوريا، 1990، ص04.

بالقول: «**إن العناية الإلهية التي قضت بأن تنادي سليل القديس «لويس التاسع»، ليأخذ بالثأر ويقتص للمسيحية والإنسانية**».[1]

ومن أجل التدليل بأن الخطوة المعلن عنها من قبل الدوق الفرنسي المسيحي «**دي كليهون** Dy clihone»، لم تكن بالعمل الانفرادي أو الحادث العرضي العفوي في المسيرة الاستيطانية والمشروع الاحتلالي الفرنسي المعلن ضد الجزائر، فقد نقل لنا أحد شاهدي العيان من العسكريين الفرنسيين المعاصرين للحملة الاستيطانية المعلنة على الجزائر «**ستيفان ديستري**»، وذلك حول المشاهد والمظاهر الاحتفالية التي أخذت في مجملها الطابع الديني، لاسيما ما تعلق منها بالمشاهد والطقوس الدينية التي واكبت عملية السيطرة على أهم مدن هذه البلاد، في القول: «**لقد عادت المسيحية من جديد؛ للاستحواذ على بلد كانت حاضرة به من قبل...، وقد قام قسيس فرنسي بمراسيم الحفل الديني، وبعد ذلك أنحنى الجنود الفرنسيون شكرا للإله على الانتصار المحقق**».[2]

وفي ذات الموضوع؛ يشير العديد من الدارسين والباحثين إلى الأهمية والدلالة التي تعبر عنها التجاوزات العسكرية للسلطات الفرنسية، تجاه المؤسسات الدينية والتعليمية بهذه البلاد من مثل: التجاوزات والانتهاكات المقترفة في حق (المساجد، المدارس، الكتاتيب، الزوايا...)، وهي الأساليب التي تنم عن استهداف واضح من لدن العسكريين الفرنسيين لكافة رموز الهوية الجزائرية، والتي نجد أن عامل الدين الإسلامي يعتبر أهم الثوابت الهوياتية والحضارية لدى عموم الوطنيين الجزائريين، وهو ما جاء ذكره على لسان العديد من الضباط والعسكريين الوافدين مع الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر في القول: «**إن آخر أيام الإسلام في الجزائر قد دنت، وخلال عشرين عاما لن تجد للجزائريين**

(1) عبد العزيز فيلالي: جرائم الجيش الفرنسي في مقاطعتي الجزائر وقسنطينة 18301850، دار الهدى، الجزائر، 2012، ص 27.
(2) عبد المجيد بن عدة: الخطاب النهضوي في الجزائر 19251945، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 20042005، ص14.

إلهاً غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك بأنها قد ضاعت من الإسلام للأبد».[1]

ومما سبق التطرق إليه، نستطيع القول بأن الحملة العسكرية الفرنسية المعلنة على الجزائر سنة 1830، كانت عبارة عن مشروع استعماري واستيطاني أوربي مشترك، تظافرت لأجل إنجاحه العديد من الظروف الداخلية والخارجية لكلا الطرفين المتنازعين، وتشير العديد من الدراسات إلى أن العامل الديني والعقائدي يعد أحد أهم الأسباب والدوافع التي ساهمت في ظهور هذا المشروع الاحتلالي الفرنسي ضد الجزائر، وذلك من خلال بذر وزرع الروح الصليبية العنصرية في نفوس الغزاة من العسكريين والمستوطنين الفرنسيين والأوربيين على حد سواء.

2-رجال الدين المسيحيون المناهضون للثورة التحريرية الجزائرية:

قليلة هي الدراسات والأبحاث التاريخية التي تناولت بالبحث والتقصي قضايا رجال الدين المسيحيين وحضورهم بالجزائر إبان الفترة الاستعمارية في هذه البلاد، غير أن الغالب هو أن المواقف المعلن عنها من قبل أقطاب الكنيسة المسيحية خلال الفترة المذكورة إنما هي مواقف رسمية صادرة من قبل رجال الكنيسة من الموظفين الرسميين بالكنائس المسيحية الفرنسية في الجزائر أو حتى في فرنسا نفسها، وهؤلاء هم في العادة الناطقون الرسميون باسم الكنيسة المسيحية في داخل البلاد كما في خارجها.

وبناء على ما تقدم، نستطيع القول بأن أغلب المواقف التي صدرت عن رجال الدين المسيحيين في ما تعلق بالقضية الجزائرية أو تطوراتها، تكاد أن تكون في أغلبها عبارة عن نداءات أو حتى دعوات موجهة إلى الشعبين الفرنسي والمسيحي عامة، من أجل الاستجابة لنداء الوطن والعقيدة المسيحية، وفي ذلك سعي واضح من قبل السلطات السياسية والعسكرية الفرنسية لأجل ضمان التأييد

(1) عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص28.

الروحي والديني للمشروع العسكري الاعتدائي المعلن من قبل الدولة الفرنسية المدعمة من لدن القوى الأوربية المسيحية للقضاء على الشوكة التي باتت تسببها الجزائر لعامة الأوربيين في حوض البحر الأبيض المتوسط.[1]

وفي إطار الجهود المبذولة من قبل رجال الدين المسيحيين الرسميين، من أجل المحاولات الهادفة لجعل الاحتلال الفرنسي على الجزائر مشروعا حضارياً وتمدينياً، يسعى إلى نشر المدنية والحضارة الأوربية في هذا الجزء الجنوبي من البحر الأبيض المتوسط، والعمل بالمقابل من أجل تعميم مبادئ وتعاليم العقيدة المسيحية ومحاولة نشرها في أكبر جزء ممكن من أنحاء العالم، ولا أدل على هذه المواقف التي تبناها العديد من رجال الدين المسيحيين من الفرنسيين، وبخاصة بعد الأحداث التحررية التي شهدتها البلاد بعد اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية في الفاتح نوفمبر 1954، وهي الحقائق التي وضحتها التصريحات المتعددة لرجال الدين المسيحيين والأقطاب من المسؤولين عن الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، والذين أعلن الكثير منهم أن الأحداث الدائرة في الجزائر إنما هي أعمال تهدف إلى نشر واقع الفوضى واللاأمن في البلاد، من لدن مجموعة اللصوص والمتمردين المأجورين من قبل أطراف خارجية، لا هدف لهم ولاهم سوى نشر الفوضى واللااستقرار في ربوع هذه البلاد، وما الجهود السلطوية الفرنسية السياسية والعسكرية إلا تسعى جاهدة من أجل استباب واسترجاع الأمن والاستقرار في البلاد.[2]

وفي الوقت الذي وقفنا فيه على الكثير من جهود التبرير المقدمة من قبل رجال الدين المسيحين للحملة الاعتدائية الفرنسية على الجزائر، فقد كانت هناك العديد من المحاولات الموازية الأخرى من طرف العديد من رجال الدين المسيحيين الفرنسيين، وذلك من أجل التأصيل لأن الأحداث التي

(1) نور الدين عسال: الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية والتعذيب إبان الثورة التحريرية، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية ، م03، ع02، المتوسطية، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، د.ت. ص267.

(2) سعدي بزيان: فرنسيون أحرار في ثورة 1 نوفمبر 1954، ط1، دار نسيبان، الجزائر، 2016 ص134.

تشهدها الجزائر إنما هي ذات علاقة مباشرة بالأوضاع الاجتماعية والحياتية المتدهورة التي يشهدها المجتمع الجزائري، والتي تعتبر حسب وجهة نظرهم سبباً وجيهاً للإعلان عن ملامح ومظاهر التذمر والسخط إزاء الحكم الخارجي المتسلط على الحريات تجاه السكان الأصليين في هذه البلاد، وهو ما جاء نصه على لسان الأسقف الفرنسي «دوفال» الذي صرح بعد الأحداث الأولى لغرة نوفمبر في قوله: «**إن أحد شروط السلم هي العدالة الاجتماعية، ولا ينكر أحدا أن جهودا قد بذلت في هذا السبيل، كما لا ننكر الصعوبات التي تعترض الذين يعكفون على تحسين مصير المستضعفين من الفقراء والمساكين**».[1]

وفي صورة أخرى من صور التدليل على المواقف المتباينة والمناهضة للحراك التحرري المعلن من الجزائريين من قبل رجال الدين المسيحيين أيضاً، فلا أبلغ من الموقف الذي تبناه الكاردينال المسيحي الفرنسي «فالتان cardinal voltaine»، الذي بذل هو الآخر جهوداً كبيرة من أجل تبرير الوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر، كما عمد إلى تبرير جميع الأساليب اللاإنسانية المنتهجة من قبل السلطات العسكرية الفرنسية ضد المدنيين الجزائريين، والتي أشار الكاردينال بأنها جهود من أجل تحقيق الأمن ونشر السلم بين سكان البلاد، ولم يتوقف الكاردينال الفرنسي «فالتان» عند هذا الحد، من التشويه والتزييف للحقائق والأحداث الجارية وقائعها في الجزائر، بل تعداها إلى مراحل أكثر خطورة من خلال إثارته للأحقاد الدينية والعنصرية تجاه السكان الأصليين من الأهالي المسلمين الجزائريين، وبخاصة بعد أن اجتهد في بث سموم العنصرية الدينية إزاء هؤلاء المدنيين في نفوس الجنود والعسكريين الفرنسيين من قوات الجيش الفرنسي المرابطة في الجزائر، أين نهض هذا الأخير بمسؤولية بعث الحماس الصليبي في نفوس وعزائم هؤلاء المجندين من العسكريين الفرنسيين، والذين كانوا قد رفضوا في وقت

(1) مولود قاسم نايت بلقاسم: ردود الفعل الأولية داخلاً وخارجا على غرة نوفمبر، دار الأمة، الجزائر، 2007. ص96.

سابق الاستمرار في أداء واجباتهم العسكرية، متسائلين عن جدوى وأهداف هذه الحرب المعلنة من قبل الفرنسيين ضد الجزائريين.[1]

وبالرغم من التطورات الحاصلة في ما يتعلق بأحداث الثورة التحريرية وتطوراتها المختلفة، وكذا بالنسبة إلى تأثيراتها في الأوساط العسكرية والمدنية الفرنسية، فإننا نجد أن الكاردينال «فالتان» قد واصل في تبنيه لسياسة المجاملة للسلطة السياسية القائمة في البلاد وتغاضيه عن الواقع المأساوي الذي يعيشه الجزائريون، وذلك في ظل إدراكه اليقيني بأن القضية الجزائرية إنما هي قضية عادلة وانسانية والجزائريون هم أنموذج صريح عن ضحايا التسلط الاستعماري الفرنسي القائم في الجزائر، ولا أدل على هذا التواطؤ من قبل رجال الدين المسيحيين مع السلطات الرسمية الاستعمارية في الجزائر، من القبول الذي أعرب عنه الكاردينال «فالتان» في ما تعلق بالدعوة الموجهة إليه من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية والعسكرية في الجزائر سنة 1955، وذلك تزامناً مع الاحتفال السنوي بعيد القديسين (أول نوفمبر من كل سنة)، من أجل تقديم الدروس والمحاضرات الدينية المسيحية المرفقة بالمواعظ الموجهة لهؤلاء العسكريين والجنود من الفرنسيين في حربهم ضد الجزائريين، كما قام نفس الكاردينال في نفس المهمة المسندة إليه، بزيارة تفقدية لمقر اللفيف الأجنبي بمدينة سيدي بلعباس وبها بذل الكاردينال جهده في الرفع من عزائم الجنود الفرنسيين، وتشجيع الأجانب منهم على مواصلة مهامهم النبيلة التي ينهضون بها في سبيل ديمومة الأمة الفرنسية شامخة وقوية.[2]

وبهدف التأكيد على شمولية المواقف الرسمية المسيحية، وبخاصة في ما تعلق بموقف الكاردينال المسيحي «فالتان» من القضية الجزائرية وتطوراتها الحاصلة في الجزائر، وحول طبيعة المهام الموكلة لهذا الأخير من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية بهذه البلاد، فقد ذكرت الباحثة الفرنسية «**مارتين**

(1) عبد الكريم بوصفصاف وآخرون: القيم الفكرية والإنسانية للثورة التحريرية الجزائرية (19541962)، ج1، منشورات مخبر الدراسات التاريخية، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2003، ص133.

(2) عبد الكريم بوصفصاف وآخرون: المرجع نفسه، ص135.

سيفينغراند» في كتابها حول المواقف المسيحية من القضية الجزائرية، تصريحاً في غاية الأهمية من قبل الكاردينال الفرنسي «فالتان» وبخاصة في ما يخص المهام المسندة إلى هذا الأخير في واجبه الوطني والديني بالجزائر، وحول ذلك يقول: «**...في السنة الماضية (أي سنة 1955)، استدرجت في نفس هذا الظرف، لكي أوضح واجبات الفرنسيين تجاه الجزائر والجواب الذي ينبغي أن نقدمه لنداء الوطن، وفي وسعي اليوم أن أدلي بعبارات شكري لكافة أولئك الرجال الشباب المجندين في الخدمة، أو المحتفظ بهم أو المدعوين من جديد، والذين يقومون منذ أشهر بواجبهم هناك، كفرنسيين بشجاعة وسخاء...**».[1]

وفي ذات الاتجاه، فقد تواترت الدراسات التاريخية بعضا من التصريحات العنصرية لثلة من الأساقفة الفرنسيين وموقفهم من الكفاح التحرري الذي يقوده الجزائريون من أجل استرجاع حريتهم وكرامتهم المسلوبة من طرف الفرنسيين، فهذا على سبيل المثال القس الفرنسي «أب لويس» يذكر الجنود الفرنسيين بواجبهم الوطني والديني إزاء الأمة الفرنسية في قوله: «**إن الأمة ترسلكم إلى الجزائر من أجل إعادة النظام، قم بواجب الجندي، إنها إرادة الله...**»، وفي ذات السياق أيضا يؤكد القس المسيحي الفرنسي «دولاروا» على ضرورة توظيف الوسائل القمعية من أجل القضاء على الثورة وأعمال العنف التي تشهدها الجزائر، في قوله: «**التعذيب وسيلة فعالة حتى ولو كانت غير عادية، فالمتهم لا يلوم إلا نفسه، فهو لا يتكلم، وحتى يقتنع بضرورة التكلم وفي هذه الظروف الاستثنائية، فلابد أن يبقى التعذيب مهمة جليلة**»، وفي ذات الموضوع يذكر الأب المسيحي الفرنسي «شابولي» اقتراحاته من أجل البحث عن الحلول اللازمة للقضاء على الثورة التحريرية الجزائرية في مهدها، من خلال القول: «**إنه من الواجب المؤكد، لحماية المجتمع من تكالب المتطرفين يجب إلحاق الهزيمة ونزع السلاح بكل الوسائل المسموح بها في الحرب**».[2]

(1) مارتين سيفينغراند: مسيحيون ضد استعمار الجزائر، دار أمدوكال للنشر، الجزائر، 2013، صص 8889.
(2) نور الدين عسال: المرجع السابق، ص11.

ومما سبق ذكره نستطيع القول؛ بأن الكثير من رجال الدين المسيحيين المناهضين للمشروع التحرري المعلن عنه في الجزائر بتاريخ 01 نوفمبر 1954، إنما تعود جذور مواقفهم إلى بعض الخلفيات المصلحية والطموحات الشخصية أو السياسية أو حتى الإيديولوجية...، والتي تتماشى في أغلبها مع القرارات السلطوية والسياسية الفرنسية في البلاد، وذلك بتوظيف هذه الأخيرة لمختلف الأساليب الدينية والعقائدية وجميع البواعث الروحية، من أجل استقطاب الرأي العام المسيحي، من أجل الاستبقاء على تماسك ووحدة الجيش العسكري الفرنسي بالجزائر، والمحافظة على هيبته وروحه الصليبية في مواجهة الضربات الموجعة التي يتلقاها من جراها الأعمال الجهادية والثورية للجزائريين، فكان اللجوء إلى هذا الخيار حلاً إلزامياً في الوقت الذي بدأت ملامح الشك والريبة تشق طريقها إلى نفوس الكثير من الجنود والعسكريين الفرنسيين، حول الجدوى والغاية من الحرب التي يخوضونها باسم الأمة الفرنسية ضد المدنيين الجزائريين.

3-رجال الدين المسيحيون المتعاطفون مع القضية الجزائرية:

منذ أول أيام الثورة التحريرية والدعاية الفرنسية الاستعمارية وترسانتها العسكرية، تسعى وتخطط لأن تجعل من القضية الجزائرية وثورتها التحريرية تسير في اتجاهات الحرب الدينية المقدسة التي ما لبثت أن دعت إليها السلطات الفرنسية منذ أول أيامها الاحتلالية على أرض الجزائر، وهي التي حاولت ولمرات عديدة أن تجعل من حربها المعلنة على الجزائريين صورة من صور الصراع القائم بين الأديان والمعتقدات الدينية ليكون الإسلام والمسيحية محلاً لهذا الصراع القائم بين الطرفين، وفي ذلك خطوة واضحة من أجل إثارة العالم المسيحي عامة والأوربي والفرنسي خاصة إزاء القضية الجزائرية، وهي الخطط العنصرية الجهنمية، التي حاولت من أجل تحقيقها وتجسيدها مجمل الأجهزة الدعائية الفرنسية، محاولة تقويض النضال التحرري المعلن من قبل الوطنيين الجزائريين.[1]

(1) جمال قندل: مقاربات الاحتلال الفرنسي في التعاطي مع الثورة الجزائرية –الحرب النفسية أنموذجا 19541962، المجلة الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، ع19، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر، جانفي 2018، ص 224.

ولولا أن الكفاءة التي تميز بها قادة الثورة التحريرية ومناضلي «جبهة.ت.و» في التعامل مع هذه المواقف، من خلال الوقوف سداً منيعا في وجه جميع المخططات والمكائد العنصرية التي دبرتها الدعاية الاستعمارية الفرنسية وأجندتها السياسية والعسكرية والعمل على احباطها، وذلك ما بينته أغلب المواثيق الأساسية للثورة التحريرية الجزائرية، في القول: : «...**وقد عمد الاستعمار لبلوغ هدفه إلى قذف الفزع في القلوب، فاتهم الحكومة بإهمال الأقلية الأوربية غير الإسلامية، وإلقائها بين يدي (الوحشية العربية) وتركها ضحية (للحرب الدينية) وإسلامها لمكيدة أفظع من سان «بارتيليمي» الشهيرة...**».[1]

وفي نفس الوقت الذي اجتهدت الدعاية الاستعمارية بكامل امكاناتها ووسائلها، لأجل رسم صورة قاتمة سوداء حول طبيعة الكفاح المعلن عنه في الجزائر، فقد نهضت الثورة التحريرية الجزائرية بالمقابل من خلال وسائلها الإعلامية والدعائية، من أجل دحض الأطروحات العنصرية التي حاولت الدعاية الفرنسية التمكين لها، وذلك سعياً من النخبة الجزائرية لإبراز والتعريف بحقيقة وأهداف الكفاح التحرري الجزائري، والذي ورد ضمن نصوصه وأدبياته المتعددة أن هذا الكفاح المسلح سيكون نضالا شرعيا وسلمياً يتقيد بجميع الأحكام الشرعية للدين الإسلامي ومجمل النصوص القانونية الوضعية المختلفة، وفي رد صريح على اتهامات الدعاية الفرنسية بعنصرية هذا الكفاح التحرري المعلن عنه من قبل الجزائريين، وبخاصة في ما تعلق بطبيعة الحضور العقائدي للدين الإسلامي في هذا النضال التحرري؛ من خلال القول: «...**أما الإسلام فإن الجهاد فيه لإعلاء كلمة الله وحماية بيضة المسلمين، وهو ليس موجهاً ضد أي دين من الأديان، بل موجه ضد ظلم أهل أي دين للمسلمين، فهو يقاوم الظالمين منهم دون غيرهم، ولا أدل على هذا من أن الإسلام يحرم على المسلمين أثناء حروبهم ضد أعدائهم المساس ببيع وكنائس أهل الكتاب...**».[2]

(1) ميثاق مؤتمر الصومام 1956: المصدر السابق، ص 42.

(2) عبد الكريم بوصفصاف وآخرون: المرجع السابق، ص35.

وفي ظل السجال القائم بين الطرفين الفرنسي والجزائري، فقد اجتهدت «جبهة.ت.و» من أجل توظيف بعض من أوراقها سعياً إلى إثبات الشرعية والقانونية التي للكفاح التحرري الجزائري وذلك من خلال سعي قادة الثورة التحريرية إلى استقطاب العديد من الشخصيات الفرنسية والأوربية وحتى العالمية من المحايدين والأحرار والديمقراطيين، ولا أدل على صور هذه الجهود والهادفة إلى احتواء بعض الشخصيات الانسانية إلى جانب الكفاح التحرري الجزائري، مما تواترته بعض الدراسات التاريخية، والتي وضحت هذا التوجه بالقول: «...**لقد حرصت قيادة الثورة الجزائرية، منذ بداية الثورة على محاولة استقطاب شخصيات ثقافية ودينية فرنسية، يمكنها أن تؤثر على الرأي العام الفرنسي بما يخدم أهداف الثورة الجزائرية...**».(1)

وهو الطرح الذي أيدته مجمل المواثيق الثورية الجزائرية، والتي بينت وبصورة جلية المغزى والهدف الرئيسي من العمل الثوري والحراك التحرري الجزائري، وهو ما تجلت صورته في أول وأهم ميثاق بالنسبة للثورة التحريرية، وذلك من حيث كونه أول المواثيق صدوراً وأبرزها قيمة تاريخية وأيديولوجية في نص جاء فيه: «...**إن الهدف هو القضاء على النظام الاستعماري...وإقامة الدولة الجزائرية ذات السيادة...**».(2)

واستنادا إلى العدالة التي تميزت بها القضية الجزائرية وثورتها التحريرية التي أقرت الكفاح المسلح وسيلة لها لاسترداد الحرية المسلوبة، والوضوح والجلاء في الأهداف والمرامي المسطرة للوصول بهذا الكفاح التحرري الجزائري المعلن عنه، فكان الاقتناع بعدالة القضية الجزائرية وانسانيتها بصفة تدريجية من قبل رجال الدين المسيحيين، والذين عبر الكثير منهم عن قلقه إزاء الأوضاع السائدة في الجزائر داعياً إلى ضرورة تحسين الأوضاع المعيشية والاجتماعية لهؤلاء الجزائريين قبل أن تحل الكارثة في

(1) عبد الكريم بوصفصاف وآخرون: المرجع نفسه، ص 123.
(2) بيان أول نوفمبر 1954: المصدر السابق، ص08.

هذه البلاد، في قوله: «**وكما قلناه عدة مرات، فمن المستعجل زيادة الجهود في مكافحة الفقر والبؤس والبطالة، كما يجب الحفاظ على روح المحيط، ونؤكد ضرورة رفع مستوى المعيشة**».[1]

وفي نفس السياق، نجد أن الكثير من القساوسة ورجال الدين المسيحيين قد استجابوا لنداء الضمير الإنساني الحر، ليقرر العديد منهم بعد هذا الاقتناع بعدالة القضية الجزائرية، اتخاذ قرار التنديد بالممارسة القمعية وعمليات التعذيب المسلطة ضد الجزائريين والجزائريات، والتي يتعرض لها العديد من المدنيين على أيدي غلاة وزبانية السلطات العسكرية الفرنسية بالجزائر، وفي هذا السياق نجد مثلاً القس الفرنسي «بيير نغار» يعلن عن قنبلة لا إنسانية في الأوساط المسيحية بمنطقة أمريكا الجنوبية، من خلال إعلانه عن الحقيقة حول التجاوزات الاستعمارية للسلطات الفرنسية تجاه الأهالي الجزائريين.

كما تجدر الإشارة أيضا، إلى أهمية الرسالة التي بعث بها الكاردينال الفرنسي «**دوفال**» إلى أساقفة مدينة الجزائر بتاريخ 20 جانفي 1955، والتي دعاهم من خلالها إلى ضرورة التوحد من أجل التنديد بالجرائم القمعية والتعذيب، والتي أضحت تقترف في كل وقت وحين باسم الأمة الفرنسية ضد المدنيين الجزائريين، وقد تضمنت الرسالة نقداً لاذعاً من قبل هذا الأخير للسلطات الحكومية والعسكرية الفرنسية في الجزائر، هذه الأخيرة التي اتهمت بممارسة التعتيم والتضليل تجاه الحقائق والجرائم اللاإنسانية المقترفة من قبل هذه السلطات في حق الجزائريين والجزائريات، في قوله: «**لسنا عمياناً ولا طرشاً ولا منكمشين في كنائسنا، بالعكس إننا نعرف كل ما يجري، فالكثير من جنودنا يأتون للاعتراف ويحكون لنا كل شيء بالتفاصيل، عن الأشخاص الذين يعذبونهم والنساء اللائي يهتكون أعراضهن**»[2].

(1) مولود قاسم نايت بلقاسم: المصدر السابق، ص96.

(2) نور الدين مقدر: التعذيب الاستعماري في الجزائر خلال الثورة التحريرية بين المعطى القانوني والتعنت الاستعماري، مداخلة في الملتقى الدولي الثورة التحريرية الكبرى دراسة قانونية وسياسية، جامعة 08 ماي 1945قالمة، الجزائر، ماي 2012، ص205.

في ظل هذه الحقائق حول الممارسات المأساوية للسلطات الاستعمارية الفرنسية، التي حملتها تصريحات واقرارات القساوسة ورجال الدين المسيحيين من الفرنسيين، حول واقع وحقيقة التجاوزات اللاإنسانية المرتكبة في حق المدنيين الجزائريين والتي تأكدت على لسان الكاردينال «دوفال» الذي اتهم وبصورة واضحة السلطات الاستعمارية الفرنسية بالاعتداء والتعسف السياسي والعسكري، من خلال رسالته الموجهة إلى أساقفة مدينة الجزائر وهي الرسالة التي حققت صدى دعائياً واسعاً في الأوساط الإعلامية الفرنسية وحتى العالمية، الأمر الذي كان سبباً في ردود أفعال متباينة ومختلفة، تجاه التصريحات التي أعلن عنها «الكاردينال دوفال» حول التجاوزات والجرائم المقترفة من طرف العسكريين الفرنسيين، إذ انقسمت ردود الفعل الفرنسية بين متعاطف مع الجزائريين ومتضامن معهم، وبين جهات متعصبة للوطنية الضيقة واللاإنسانية المتعصبة للفرنسيين، حتى أن من هؤلاء المناهضين من أثار حملة دعائية ضد الكاردينال الفرنسي «دوفال» مطالباً السلطات الفرنسية، بضرورة إقالته من منصبه كقس ورجل للدين في الكنيسة المسيحية الفرنسية وتجريده من جميع امتيازات الدولة الفرنسية، وفي ظل هذه التهديدات والوعيد بالثأر الذي تلقاه القس الفرنسي «دوفال» بالانتقام والتصفية، من قبل عديد الأطراف الفرنسية المتعصبة للجرائم السلطوية المرتكبة في حق المدنيين الجزائريين، نجد أن موقف هذا الأخير قد ظل ثابتاً وصامداً أمام الرياح القوية للفرنسيين المتعصبين للأطروحات الاستعمارية، وقد تجلى ذلك في الثبات على موقفه من القضية الجزائرية وتجريمه للاعتداء الفرنسي لها في عديد المناسبات، وهو الذي ظل بالرغم من المضايقات التي تعرض لها يردد عباراته الشهيرة، التي يقول فيها: **«إن حق الإنسان في الحياة، لا يتوافق مع ممارسة التعذيب، والإعدام بلا محاكمة».**[1]

□

(1) عبد الكريم بوصفصاف وآخرون: المرجع السابق، ص132.

خاتمة:

ومما سبق التطرق له نستطيع القول؛ بأن فئة رجال الدين المسيحين من الفرنسيين قد انقسموا وتباينوا في مواقفهم من القضية الجزائرية عامة والثورة التحريرية الجزائرية بصفة خاصة، إلى موقفين متباينين متناقضين.

الأول: مساند للمشروع الاستعماري الفرنسي مناهض للقضية الجزائرية، وداع إلى ضرورة الإبقاء على الجزائر مستعمرة فرنسية من أجل حماية المصالح الاستعمارية وعامة المدنيين الفرنسيين على أرض الجزائر.

الثاني: مناهض للنظام الاستعماري ومساند ومتعاطف مع القضية الجزائرية، استنادا إلى جملة من القناعات الفكرية والإنسانية وحتى الدينية التي تدعو إليها العقيدة الدينية المسيحية، بعد إقرار هؤلاء القساوسة ورجال الدين المسيحيين بعدالة وانسانية القضية الجزائرية بصفة عامة.

□

قائمة المصادر والمراجع:

أ. الكتب:

1. بزيان سعدي: فرنسيون أحرار في ثورة 1 نوفمبر 1954، ط1، دار نسيبان، الجزائر، 2016.
2. بوصفصاف عبد الكريم: القيم الفكرية والإنسانية للثورة التحريرية الجزائرية (19541962)، ج1، منشورات مخبر الدراسات التاريخية، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2003.
3. حسيبة مصطفى: المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر، الاردن، د.ت.
4. سهيل زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج07، المصادر العربية للنشر، سوريا، 1990.
5. سيفينغراند مارتين: مسيحيون ضد استعمار الجزائر، دار أمدوكال للنشر، الجزائر، 2013.
6. فيلالي عبد العزيز: جرائم الجيش الفرنسي في مقاطعتي الجزائر وقسنطينة 18301850، دار الهدى، الجزائر، 2012.
7. نايت بلقاسم مولود قاسم: ردود الفعل الأولية داخلاً وخارجا على غرة نوفمبر، دار الأمة، الجزائر، 2007.

ب. المقالات:

8. عسال نور الدين: الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية والتعذيب إبان الثورة التحريرية، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية ، م03، ع02، المتوسطية، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، د.ت.
9. قندل جمال: مقاربات الاحتلال الفرنسي في التعاطي مع الثورة الجزائرية –الحرب النفسية أنموذجا 19541962، المجلة الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، ع19، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر، جانفي 2018.

ج. الرسائل الجامعية:

10. بن عدة عبد المجيد: الخطاب النهضوي في الجزائر 19251945، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 20042005.
11. زقب عثمان: السياسة الفرنسية في الجزائر 18301914(دراسة في الأساليب الإدارية)، أطروحة دكتوراه، إ: صالح لميش، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2014/ 2015.

د. الملتقيات العلمية:

12. مقدر نور الدين: التعذيب الاستعماري في الجزائر خلال الثورة التحريرية بين المعطى القانوني والتعنت الاستعماري، مداخلة في الملتقى الدولي الثورة التحريرية الكبرى دراسة قانونية وسياسية، جامعة 08 ماي 1945قالمة، الجزائر، ماي 2012.